(٢٠)

وأوفوا بالعهد

ننتقل بعد هذا إلى الوصية الثانية عشرة وهي قول الله تعالى:

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء: ٣٤).

أمروا بالوفاء بالعهد. والتعريف في "العهد" للجنس المفيد للاستغراق، أي يشمل جميع ما عاهدوا الله ورسوله، وعاهدوا أنفسهم على الوفاء به. والعهد قد يكون ظاهرًا بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وقد يكون خفيًا بين المرء وربه.

ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره: إن الرجل قد يحلف مع نفسه فيكون ذلك الحلف خفيًا، ويكون برّه وحنثه أيضًا خفيًا. (والحنث المعصية). ولابد فيه من التفكير والاجتهاد حتى يقف على موضع الاعتدال (١٣: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وذلك في تفسيره لوصايا سورة الأنعام).

وهذا التشريع ـ الوفاء بالعهد ـ من أصول مكانة الأمة في نظر الأمم، والثقة بها، والاطمئنان إلى عقد المعاهدات والمواثيق معها.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ تعليل "للأمر" أي للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ "العهد" في مقام إضماره، للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة، فتسري سري المثل. ومسئولاً هنا معناها أن يسألكم الله عنه يوم القيامة.

وهنا يمكن أن نذكر صورًا من هذا الوفاء بالعهود. وأولها صلح الحديبية في العام السادس للهجرة. وقد طبقّه الرسول عليه الصلاة والسلام تطبيقًا دقيقًا، واستطاع في عامي الهدوء ـ بين الصلح وفتح مكة ـ أن يكسب بالسلم للإسلام أكثر مما كسب بالمغازي التي سبقته، ولهذا كان هذا الصلح فتحًا مبينًا كما سماه الله تبارك وتعالى في كتابه.. ولم تدرك قريش، عندما وقّعت هذا الصلح، أبعاده الحقيقية، التي خفيت حتى على كبار الصحابة، واحتفظ بها الرسول عليه الصلاة والسلام لنفسه.. ولما سأله كبار الصحابة عن رضاه بالعودة دون دخول مكة، والعودة من قابل، وأن لا يقبل من جاء من مكة مسلمًا فارًا بدينه، وأن يردّه إذا جاءه، بينما لا تردّ قريش من جاءها مرتدًا.. رأوا في هذا ما جعل عمر بن الخطاب يتساءل: أو لست برسول الله؟ أو لسنا بالمؤمنين، أو ليسوا

بالكافرين.. والرسول يجيب على كل هذه الأسئلة: اللهم نعم، وهنا يتساءل عمر متألمًا: فلماذا نعطي لهم الدنية من ديننا؟ ويأتي رد المصطفى عليه الصلاة والسلام:

"أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني" ولنتأمل قوله "لن أخالف أمره" هنا النبوة والوحي والأفق الذي يعلو إدراكه عليهم في حاضر أمرهم.

وبرهنت التطبيقات العملية على أن الذين خرجوا بدينهم فارين من مكة لم يدخلوا المدينة، ولم يعودوا إلى مكة، وكوّنوا قوة ضاربة مستقلة قطعت على قريش طريق تجارتها، وأصبحت طرفًا ثالثًا غير خاضع للمعاهدة. رسميًا: لا سلطان للنبي عليها. وعمليًا: لا سلطان لقريش عليه. وعسكريًا: أرهقوا تجارة قريش العُسر من أمرها واستولوا على قوافلها. بينما المسلمون في شُغُل بنشر الدعوة بين القبائل، واستقبال الوفود، وإرسال البعوث والرسائل إلى الحكام في الجزيرة العربية وما حولها.. وتفرَّغ الرسول ﷺ في العام السابع للسيطرة على القطاع الشمالي من الجزيرة العربية حيث حصون اليهود في خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى. وأحست قريش أن الدائرة تضيق حولها، وأن موج الإسلام يرتفع ويقترب فخرقت المعاهدة، وبذلك أصبح الطريق مفتوحًا إلى مكة، وتم الفتح في العام الثامن للهجرة.

ولقد كانت ثمرة الوفاء فتحًا، وكانت ثمرة غدْر قريش وحلفائها أن سقطت أعلام الشرك التي كانوا يرفعونها، وصَدَقَ الله وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فالقوة لله جميعًا.

ولقد كانت عهود القادة المسلمين في الأقطار المفتوحة صورًا كريمة للعدل في المعاملة أولاً، والوفاء بالعهد ثانيًا.

وعندما عقد أبو عبيدة بن الجراح عهدًا مع أهل حمص على حمايتهم، ودفعوا الجزية لذلك، واضطر أبو عبيدة إلى تغيير خطته والانحياز إلى فئة، والانسحاب من حمص، رد إليهم جزيتهم، وهي مقابل الدفاع عنهم، وأعلنهم بعزمه وخطته.

ويكفل الإسلام للذميين وهم الذين يحتفظون بعقيدتهم في دار الإسلام حريتهم الشخصية وحرية عبادتهم: عقيدة وشعائر، وحماية أموالهم ونفوسهم وأعراضهم، ونشاطهم الاقتصادي، كما يؤمنهم ضد العوز والحاجة، وقد فرض سيدنا عمر بن الخطاب للذميين من بيت مال المسلمين قائلاً عن يهودي ضرير يحتاج: فوالله ما أنصفناه: إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهَرَم (وهو كبر السن) الخراج لأبي يوسف: ص٢٧٨ ـ ٢٧٩ط بنك الكويت الصناعي.

(٢١)

الوفاء بالكيل والعدل في الميزان

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٥).

وهذان الحكمان هما الوصيتان الثانية عشرة والثالثة عشرة إحداهما متعلقة بالكيل والثانية بالوزن.. والكيل حجم، والوزن ثِقَل، هما متباينان. والوفاء والعدل مطلوب فيهما معًا.

ولقد رأينا الوفاء في الآية السابقة بالعهد، إن العهد كان مسئولاً. وبشيء من التأمل يبدو البيع والشراء نوعًا من التعاقد أو التعامل: يرتضي الشاري أن يدفع مبلغًا من المال أو عوضًا معينًا، مقابل أن يأخذ من البائع عوضًا أو سلعة محددة بمكيال محدد أو وزن محدد.

هذا هو الجانب الظاهر في التبايع. يبقى بعد هذا الجانب الأخلاقي. الذي يراعيه كلٌّ من البائع والشاري ما داما قد التزما بالكيل أو الوزن والسعر المقابل.

وفعل (كال) يدل على أن فاعله مباشر الكيل، وهو البائع. ويقال للذي يقبض الشيء المكيل: مكتال.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين: ١ـ ٢).

والقسطاس اسم آلة الوزن، واسم للعدل. ولعل كلمة قسط اختصار لقسطاس ويقال إنها كلمة رومية تفيد العدل (التحرير والتنوير ١٥: ٩٨) ومعنى العدل والميزان صالحان هنا.

وحرف الباء في قوله تعالى: (بالقسطاس) ظاهرة في معنى الاستعانة والآلة، ومقيدة للملابسة أيضًا. أي أن تكونوا ملابسين للعدل حين الوزن.

وذلك "خير" أي تفضيل. أي خير من التطفيف، والتأويل هو "الرجوع" أي أحسن رجوعًا إلى الحق.

يقول الإمام الطاهر بن عاشور: "ومعنى كون ذلك أحسن تأويلاً: إن النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن، وفي مضمار الإيفاء فيها ثم عاد فجال في مضمار التطفيف ومنافع الإبقاء استقر وآل إلى أن الإيفاء بهما خير من التطفيف. لأن التطفيف يعود على المطفف باقتناء جزء قليل من المال، ويكسبه الكراهية والذم عند الناس، وغضب الله والسحتَ في ماله، مع احتقار نفسه في نفسه. والإيفاء بعكس ذلك: يُكسبه ميل الناس إليه، ورضى الله عنه، ورضاه عن نفسه، والبركة في ماله، فهو أحسن تأويلاً (التحرير والتنوير ١٥: ٩٩ ـ ١٠٠).

وإن الآية إذا كانت موجهة أساسًا إلى الجانب الاقتصادي، والتعامل بالمكيال والميزان، وكانت تربطهما بالأساس الأخلاقي القائم على مراقبة الله تعالى، وإعطاء كل ذي حق حقه، والأمانة في البيع والشراء.. فإنهما عمليًا تنسحب على مجالين واسعين:

الأول: هو التعامل الاقتصادي على شموله، وقيام التجارة على أساس أخلاقي، دون أي نوع من الغش والخداع فيها.

ولنبدأ بالغش التجاري المرتبط بسلع البيع والشراء وكيف يحاول بعض الباعة ممن لا خلاق لهم أن يعبثوا بحجومها وأوزانها بإضافة الماء إليها، أو إضافة ملح إلى الماء الذي تشربه الدواب أو الطير لتزداد قابليتها للشرب، ثم بيعها بعد هذا بالوزن.. وأي وزن!! فضلاً عما في هذا من إفساد لمحتوياتها وإسراع بالفساد إليها.

بعض هذه الأساليب من إضافة الماء إلى الغلال كانت من عهد النبوة. ونهى عنها المصطفى عليه الصلاة والسلام، كما نهى عن الحيل التي كانت تتبع في بيع الماشية لتبدو أكثر إدرارًا وعطاء لألبانها. واعتبر هذا من الغش الذي ينبغي أن يتجنبه المسلمون.

ثم أصبح الغش التجاري فيما هو أخطر من هذا، وهو الإنشاءات والمباني..

إن المسئول عن المبنى إذا تلاعب في مواد البناء، فقلل أسياخ الحديد التي ينبغي استخدامها من حيث عددها أو أقطارها، وقلل من مواد البناء الأعلى

سعرًا، وزاد من المواد الأدنى سعرًا.. ألا يمارس في هذا نوعًا من التطفيف القاتل؟ لقد كان الناس في صدر الإسلام يبنون مساكنهم الخاصة بأيديهم، أو يتعاون معهم جيرانهم في ذلك، أو يقوم به بعض أهل الحي المختصين، ولكنهم جميعًا يعرف بعضهم بعضًا، ويأمن بعضهم بعضًا.. أما في حياة المدن التي تلت ذلك بعد اتساع العمران، فأصبح قطاع الإنشاءات قطاعًا ضخمًا فيه تخصصات كثيرة، ويتعاون فيه كثيرون، ويحتاج إلى رقابة مستمرة ودقيقة. وكم سمعنا عن عمارات تساقطت وهدمت تحتها آمالاً وأرواحًا وجهود سنوات من العمل لتستقر فيها أسر بعد معاناة. هذا نوع من التطفيف، يحاول به الذين أقاموا البناء ـ أو بعضهم ـ استغلال حاجة الذين يبحثون عن مسكن يستقرون فيه. والسكن مرتبط بالسكون والراحة والاستقرار، لا بالقلق والفزع وأنواع الغش الظاهر والخفي. ومن هنا تبدو مكانة ختام الآية: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

لك أن تقول هذا عن الصناعات أيضًا مع تنوع آفاتها من صناعات المواد الغذائية وصلاحيتها، إلى صناعات الملابس، إلى وسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية، إلى الأجهزة الإلكترونية، وما يرتبط بهذا كله من وسائل الصيانة والإصلاح.

الثاني: وتستطيع أن ترى في الآية نوعًا آخر من التطفيف.. يمكن أن تسميه التطفيف البشري أو الإنساني، وهو المرتبط بوزن الأفراد وكفاءاتهم، أو ما يسمى بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وهذا نوع من التطفيف الخطر.

وانظر إلى نسميه "توصيف الوظائف" ثم قواعد اختيار الأفراد الصالحين فيها على أساس من المستوى العلمي والكفاءة الحقيقية والخبرة التي يتطلبها العمل. ثم ترقية أو ترفيع العاملين حسب قدراتهم الحقيقية، وطاقتهم على أداء المسئوليات المنوط بهم.

ولك أن تدرك خطورة هذا في مجال كالطب أو الهندسة أو الصناعات الدوائية، أو المناصب القيادية، التي تحتاج إلى أفق رحب، وخلفية واسعة، وعمق نظرة، وحسن تعامل مع النظراء والمعاونين والقيادات الأعلى.

ولك أن تنظر إلى المجال التعليمي وإعداد الكوادر المسئولة عنه، من مراحله الأولى إلى مستوياته الجامعية والعليا، وآفاق البحث العلمي وقيادة الفرق البحثية، وإطلاق طاقات الأفراد، والارتفاع إلى مستوى فوق الحسد والتباغض ووأد الكفاءات، مستوى يفرح بكل زهرة جديدة تتفتح، وكل موهبة تبدو، وكل

عقلية قادرة على الإبداع، جامعة بين التفوق والتواضع، والأصالة العلمية والأخلاقية.

حينما تقود المؤسسات العلمية هذه العقليات والأخلاقيات، فكن مطمئنًا على مستقبل أمتك، لأن الكفاءات العلمية ستكون في أيدٍ أمينة، وستجد البراعم الجديدة الرعاية والحماية، وسترى كيف تزدهر حديقة العلم والبحث العلمي؟

كل هذه الرعاية توسع في مفهوم ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

هذه المعاني هي دوائر تأخذ في الاتساع من نقطة مركزية هي الآية الكريمة، وحولها دائرة سبب النزول، وحولها دائرة الشرح اللغوي والتفسير المأثور، والقرآن فيه ما يفسر بعضه بعضًا، وتفسّره السنة النبوية المطهرة، وأقوال سلفنا الصالحين وهم الأقرب إلى أنوار القرآن والنبوة، ثم تتوالى الدوائر في الاتساع مع الحياة دون أن تفقد صلتها بما تشعه الآية الكريمة من أنوار، وما تحدثه من تموجات في سطح الحياة، ودون أن تنكر مجهود السلف الصالح في تفسير القرآن نقلاً وعقلاً وأعماقًا وآفاقًا.

إن آيات القرآن منجم ممتد العروق، وعيونٍ فياضة بالماء وكواكب تضيء سماء الحياة تهدي من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

(٢٢)

ولا تقفُ ما ليس لك به علم

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

هذه هي الوصية الرابعة عشرة. والقَفْو: الاتباع. وما ليس لك به علم: ما لا دليل لك عليه. و"السمع والبصر" هما أهم حواس اتصالك بالعالم الخارجي. "والفؤاد" هو تقييمك أنت لما تسمع وترى. كل أولئك ـ أي الإدراك الخارجي والتقييم الداخلي ـ كان عنه مسئولاً. معناه ـ كما يقول الطبري في تفسيره ـ : "إن الله سائلٌ هذه الأعضاء عما قال صاحبها، مع أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق، وقال أولئك، ولم يقل تلك. (١٥: ٨٧ ط الجلبي).

ومن هذا التعميم ننتقل إلى تطبيقات على ذلك من الجاهلية، وصدر الإسلام، ووقتنا الحاضر: ولنبدأ بالجاهلية، وكان من خلالهم ـ كما يقول الطاهر في تفسيره ـ (١٥: ١٠٠ ـ ١٠١) الطعن في أنساب الناس. عن سوء ظن إذا رأوا بُعدًا في الشبه بين الأب وولده، أو قُربًا في الشبه بين المولود ورجل آخر في الحي، أو رأوا لونًا مخالفًا للون الأب أو الأم، وذلك عن جهل بأسباب التشكل؛ وإسراعًا في القذف وسوء الظن.. ذلك لأن النسل ينزع إلى أصول الآباء والأمهات، وجهْلاً بالشبه الناشئ عن الوحَم. وقد جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: إن امرأتي ولدت ولدًا أسود (يريد أن يَنْتفي منه) فقال له النبي: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانهن. قال: وُرْق (أي في لونها بياض إلى سواد). قال: وهل فيها من جمل أسود؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعله عِرقٌ نَزَعه. فقال النبيﷺ: "فلعل ابنك نزعَهُ عِرق" ونهاه عن الانتفاء منه.

والمقصود: لعل في أحد الأصول من كان هذا لونه فنزع الولد إلى هذا الأصل البعيد أو غير القريب الذي يدركه الأب إدراكًا مباشرًا. فهذا مما كان شائعًا في الجاهلية، فنهى الله المسلمين عن ذلك.

وذلك لما قال النبي ﷺ يومًا "سلوني" أكثر الحاضرون أن يسأل الرجل فيقول: من أبي؟ فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام أبوك فلان. وكان العرب في الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه زيد بن حارثة، لأن أسامة كان أسود اللون وكان زيد أبوه أبيض أزهر (أي بياضه مشوب بحمرة). وقد أثبت

النبي ﷺ أن أسامة هو ابن زيد بن حارثة: فهذا خُلُق باطل كان متفشيًا في الجاهلية، نهى الله المسلمين عن سوء أثره.

ومنها تجنب شهادة الزور. وهي في الإسلام من الكبائر ويشملها هذا النهي.

وهذه الآية تدعو أيَّ مسلم إلى التثبت في كل أمره: يرى ويسمع ويفكر، قبل أن يُصْدِر أي حكمٍ أو يتخذ أيَّ موقف وفيه تفرقةٌ بين المعلوم والمظنون والموهوم.

ننتقل إلى العصر الحاضر، ونرجع إلى كتاب تجديد الفكر الديني في الإسلام للعلامة محمد إقبال رحمه الله.

وقد استند إلى هذه الآية في بيان منهج التفكير في الإسلام. فمصادر الحكم على الأمور: اثنان السمع والبصر، وهما نافذتا الإنسان الأساسيتان إلى العالم الخارجي، وبهما نستقبل المعرفة حتى في أمر الدين.. ويستثنى من هذا الأنبياء والمرسلون فإنهم يستمدون أساس معرفتهم من وحي الله تبارك وتعالى.

المصدر الثاني هو الفؤاد: هو التفكير والتأمل الداخلي. فالإنسان ليس مجرد جهاز استقبال لاشتات المعارف أو سيولها التي تتدفق عليه من العالم الخارجي. ولكن فيه هذا "الفؤاد": الطاقة الداخلية التي تنظم أشتات المعارف، وتستدعيها بهذه السرعة المعجزة، والقادرة على ضم الماضي إلى الحاضر، والخارجي إلى الداخلي، لتُصْدر حكمها على موقف من المواقف.

ولو ذهبنا مع أهل "العرفان" الذين يعتمدون كثيرًا على التأمل الداخلي، لوجدنا آفاقًا أرحب لأنشطة الفؤاد.

ولو ذهبنا مع أهل "المذهب التجريبي" الذين يعتمدون كثيرًا على الحواس.. بل لا يكادون يعتمدون في المعرفة على مصدر سواها، لوجدنا آفاقًا أرحب في العلم بالكون الذي حولنا، في تاريخه وآماده، وبالنفس الإنسانية على أساس تجريبي بحت.

هناك إذن مذهبان أساسيان: التجريب والعرفان وأمامهما هذه الحصيلة الضخمة من التراث الإنساني الجامعة بين أنشطة الإنسان جميعًا، ما جمعه من حواسه وما فاضت به نفسه وما أفاضه الله عليه.

فما موقف الإسلام من هذا كله، وكيف نفيد من هذه الآية الكريمة: هذه الآية الميزان ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾

هناك أربعة أركان للمعرفة في الإسلام:

أولها وأعلاها الوحي الإلهي ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣) هكذا أوحى الله إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام. وذكر لنا في كتابه المبين عن آدم: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

الركن الثاني والثالث: هما الكون والنفس الإنسانية. ويجمعها ربنا جل وعلا في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

الركن الرابع: التاريخ والخبرات الإنسانية، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١).

ودعانا ربنا إلى السير في الأرض والنظر فقال:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

وأنت حين تتدفق عليك هذه المعارف تعرضها على حواسك التي تربطك بالعالم الخارجي، وعلى التجارب التي تجمعت في فؤادك. لا تتنكر للعالم الخارجي وما فيه من معرفة وبحث وتجريب، ولا تتنكر لفؤادك وفكرك.. والإسلام يدعوك إلى استخدامها "معًا" نعم، استخدامها معًا دون فصل بين الداخل والخارج، والماضي والحاضر، وتأمل قول الله في كتابه عن كتابه، وهو

سبحانه الذي أنزله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

إنه يدعوك إلى التفكير في الإسلام ذاته. في الرسالة والرسول. ويأمر الله نبيه أن يدعو قومه إلى التفكر والتأمل والدراسة. ولنقرأ معًا قول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (سبأ: ٤٦ ـ ٥٠).

وقد نرى تقسيمًا ثلاثيًا للمعرفة:

البيـان: وهو دراسة المنقول وتوضيحه ويدخل هنا التراث الإنساني كله.

البرهان: وهو دراسة المعقول، وإقامة الأدلة عليه. وتدخل هنا المذاهب التجريبية.

العرفان: وفيه آفاق التأمل واستشراق ما وراء البيان والبرهان.

وإذا كانت هذه دعوته إلى التدبر في أمر الرسالة والرسول والوحي فهي ممتدةٌ إلى أمور الحياة ومعاملاتها.. إن ما جاء به القرآن، وما في الكون وما في النفس وما في الأرض، آياتٌ للعالمين، ولقوم يتفكرون، ولقوم يعقلون، ولقوم يعلمون، وللمتوسمين.. وهي ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. من كان له قلب: هذا هو الفؤاد، أو ألقى السمع وهو شهيد: هذا هو السمع والبصر.

فالإسلام لا يقسم الإنسان بين خارج وداخل، ولا بين حواسَّ وفؤاد، ولا بين تجريبٍ خارجي وتأمل ذاتي، وإنما هو وحدةٌ تضم كلَّ قوى الفكر والمعرفة الداخلية والخارجية في إطار، يسير الإنسان به على هدى من الله في كل أمره،

مع التوظيف الكامل لكل قدراته، وما أفاضه الله عليه، وما اكتسبه، يطبق هذا في البحث العلمي كما يطبقه في قرارات الحياة. وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(٢٣)

ولا تمش في الأرض مرَحًا

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٧).

هذه هي الوصية الخامسة عشرة والأخيرة من وصايا سورة الإسراء، ما جاء بعدها تأكيد لها، وتذكير بمطلعها وهو توحيد الله وعبادته، والإخلاص له.

والكبرياء كانت من أخلاق الجاهلية، تراها في حياتهم وتراها في أشعارهم. وكنت منذ عهد الطلب في دراستنا الثانوية، عندما تدرس المعلقات أقف كثيرًا عند أبيات عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ... ويشرب غيرنا كَدِرًا وطينًا

وقوله:

إذا بلغ الرضيع لنا فِطامًا ... تخر له الجبابر ساجدينا

ومهما قيل من أن أعذب الشعر أكذبه.. كنت أسائل نفسي: ولماذا لا يقفون صفًا.. من جاء أول الأمر يسقي إبله في هدوء، ويأتي مَنْ بعْدَه فيسقي، دون صدام ولا نزاع. وأحيانًا كنت أسائل نفسي: لماذا لا يتعاونون في حفْر المزيد من الآبار فلا تزدحم ماشيتهم على موارد محدودة؟ ولماذا يفتخر حين يرى غيره يشرب الكدر والطين؟ وهل هذه إخوة وإنسانية؟

وعن البيت الثاني كنت أتصوره - مجرد تصور - فطيمًا يتعثر في ثيابه، لا يكاد يعي شيئًا مما حوله، وإذا صرخ طلب كسرة خبز أو شَرْبة لبن أو ماء.. وأمامه الجبابر ساجدين.. هذا الفطيم الذي لا يتحكم في نفسه ولا في نظافته.. أهذا الذي تخر له الجبابر ساجدين؟